

نشاط المعتزلة ببلاد المغرب وموقف علماء السنة منه

أورنيدى طيب، بلعمري جابر

¹ جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر: tayeb.ournidi@univ-mascara.dz² جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر ، djabir.belamri@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2026/03/22 تاريخ القبول: 2026/04/20 تاريخ النشر: 2026/06/11

ملخص:

يتناول البحث فرقة من الفرق الكلامية التي ظهرت بالشرق في القرن الثاني للهجرة، وهي فرقة المعتزلة، وسأطرق فيه إلى الملابسات والأسباب التي ساهمت في انتقال أفكارها وعقائدها من المشرق وتحديدًا من البصرة إلى المغرب الإسلامي، كما سأشير إلى أصولها الخمسة التي حاول فقهاءهم ترسيخها ببلاد المغرب والآثار التي خلفتها ولا سيما في الجانب العقدي، لنقف في الأخير على الجهود التي بذلها علماء بلاد المغرب قاطبة لدحض بدع المعتزلة وحماية عرين السنة فيه.

كلمات مفتاحية: المعتزلة، المغرب الإسلامي، المقاومة، الفقهاء، الفكر الاعتزالي

Abstract:

The research deals with a group of theological groups that appeared in the East in the second century AH, which is the Mu'tazila group, and I will discuss the circumstances and reasons that contributed to the transfer of its ideas and beliefs from the East, specifically from Basra, to the Islamic Maghreb, and I will also point out its five principles that its jurists tried to establish in the Maghreb countries and the effects they left behind, especially in the doctrinal aspect, to finally stand on the efforts made by the scholars of the Maghreb countries as a whole to refute the innovations of the Mu'tazila and protect the lair of the Sunnah in it.

Keywords: Mu'tazila, Islamic Maghreb, resistance, jurists, Mu'tazila thought.

*المؤلف المرسل: جابر بلعمري

1 المقدمة:

خُصِّيت فرقة المعتزلة باهتمام كبير من النقاد والعلماء والباحثين قديما وحديثا، وقد دونت حولها الكثير من المؤلفات والكتب، حاولت جميعها دراسة أصولها ومعتقداتها ومبادئها وعلاقاتها، ويعود هذا الاهتمام إلى الإضافة الكبيرة التي أضافتها هذه الفرقة للتراث العربي الإسلامي من جهة، وإلى الانحرافات والمزالق العقدية التي وقعت فيها بعدما أخطت الطريق في الفهم الصحيح لما جاء في القرآن والسنة من جهة ثانية، كما يعود أيضا إلى ذبوع صيتها وتشرب العديد من العلماء والفقهاء في المشرق الإسلامي والمغرب لأفكارها ومعتقداتها.

وسنحاول في هذه الورقة البحثية التطرق للفكر الاعتزالي ببلاد المغرب، كون أن المعتزلة وضعوا قدما لهم في المغرب الإسلامي في وقت مبكر تزامنا مع الفكر الخارجي والشييعي، حيث نجحوا في الانتشار والظهور أرجاء واسعة من المغرب الأدنى الذي كان تحت حكم الأغالبة، وفي المناطق الممتدة من تلمسان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط، وبعض الدوائر بشمال المغرب الأقصى التي كانت تحت حكم الأدارسة. إن الإشكالية التي يمكن أن نطرحها هي: من هم المعتزلة؟، وما هي أصولهم ومعتقداتهم؟ وما هي العوامل والملايسات التي ساعدت على ظهور فكرهم بالمغرب الإسلامي وانتشاره فيه؟ وكيف تمكن علماء المغرب من دحر هذه الفرقة، وإحياء المذهب السني؟.

التعريف المعتزلة:

فرقة ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني للهجرة، في مدينة البصرة، سلكت منهجا متطرفا في بحث العقائد الإسلامية، وقد اختلف الباحثون في أصل تسميتها بهذا الاسم، وانقسموا إلى ثلاثة أقسام. الأول يرى أصحابه أن اسم المعتزلة جاء من الصحابة الذين اعتزلوا القتال بين علي وأصحاب الجمل، ثم بين علي ومعاوية، لأنهم لم يستبينوا أي الفريقين كان محقاً، وأيهما كان مبطلاً، وهذا غير مسلم به لأنه لم يترتب على اعتزال هؤلاء القتال بين الصحابة نشوء مدرسة فكرية، بل كانت الوحدة الفكرية بين الأمة قائمة بين الجميع (المعتق، 1995، الصفحات 13-14).

القول الثاني يرى أن تسمية المعتزلة ظهرت في قوم من أصحاب علي - رضي الله عنه - اعتزلوا السياسة وانصرفوا إلى العقائد، عندما تنازل الحسين بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان. يقول الملطي: "... وهم سموا أنفسهم معتزلة، وذلك عندما بايع الحسن بن علي معاوية وسلم الأمر إليه، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس - وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي - ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا نشغل بالعلم والعبادة" (المعتق، 1995، الصفحات 26-27)، وقد فند الشيخ أبو زهرة هذا الرأي وردّ بالقول: "... أنه ليس كل المنتسبين لهذه الفرقة كما نعتهم، بل كان منهم المتقون ومنهم المتهمون بالمعاصي، ومنهم الأبرار ومنهم الفجار (زهرة، صفحة 119)"

أما الرأي الثالث فأجمع عليه أغلب مؤرخي الفكر الإسلامي، منهم "البغدادي" صاحب كتاب "الفرق بين الفرق"، و"الشهرستاني" صاحب "الملل والنحل"، اللذان اتفقا على أن أهل السنة هم الذين دعواهم معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها في مرتكب الكبيرة من المسلمين وتقريرهم أنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلة الكفر والإيمان (زهدي حسن، 1366هـ / 1947م،،، صفحة 2). وبشأن ذلك يقول الشهرستاني: "أن رجلا سأل حسن البصري فقال: يا إمام الدين: لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان، فلا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ ففكر الحسن البصري في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أن لا أقول صاحب الكبيرة مؤمناً مطلقاً، ولا كافراً مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد

يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن البصري: اعتزلنا واصل، فسعي هو وأصحابه المعتزلة" (الشهرستاني، 1414هـ، صفحة 62).

عقيدة المعتزلة وأصولها:

تقوم عقيدة المعتزلة على خمسة أصول عامة، من اعتقد بها جميعا كان معتزليا، ومن أنقص منها أوزاد عليها ولو أصلا واحدا لم يستحق اسم الاعتزال (زهدي حسن، 1366هـ / 1947م،،، صفحة 51)، وهذه الأصول هي التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى هذا النحو صنفها القاضي عبد الجبار صاحب "شرح الأصول الخمسة"، وهو أجمع كتاب لأصول المعتزلة يعرض أفكارهم وأرائهم في صورة متكاملة متناسقة (سليم، 2016، صفحة 202).

1. التوحيد

أجمع فيه المعتزلة، على أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر، وأن شيئا من الحواس لا يدركه في الدنيا، ولا في الآخرة، وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل، ولا له زمان ولا مكان، ولا نهاية ولا حد، وأنه الخالق للأشياء المبدع لها، وأنه القديم، أن ما سواه محدث (المسعودي، 2005، صفحة 184).

2. العدل:

وهو الأصل الثاني عند المعتزلة، ويرون فيه أن الإنسان مسؤول عن أفعاله، يستحق على الحسن منها الثواب، وعلى القبيح منها العقاب (سليم، 2016، صفحة 224)، مادام له قدرة وإرادة واستطاعة، قد خلقها له خالقه، وأنها تؤدي وظائفها بشكل مستقل وحر، ومن ثم أن الجزاء ثوابا وعقابا هو أمر منطقي، ليس فيه شبهة جور تلحق بالبارئ سبحانه، كما هو الحال إذا قال المرء برأي الجبرية في هذا الموضوع (عمارة، 1997، صفحة 48).

3. الوعد والوعيد:

أما القول بالوعد والوعيد، وهو الأصل الثالث، هو أن الله لا يغفر لمرتكبي الكبائر إلا بالتوبة، وإنه لا صادق في وعده ووعيده، ولا مبدل لكلماته (حسن، 1996، صفحة 342). يقول صاحب الأصول الخمسة في هذا الباب: "العلم بكل ما وعد الله به من الثواب لم أطاعه، وتوعده من العقاب لم عصاه، فسيفعله لا محالة، لأنه لا يُبدل القول لديه، ولا يجوز عليه الخلف في وعده ووعيده، ولا الكذب في الإخبار به، بخلاف ما ذهب إليه المرجئة (الأبادي، 1998، صفحة 70)"، الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة (زهرة، صفحة 122).

4. المنزلة بين المنزلتين:

يقصد المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين، أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلة الإسلام والكفر (عبدالرحيم، صفحة 76)، فقد حكموا على مرتكب الكبيرة أنه لا مؤمن ولا كافر، بل فاسق، فجعلوا الفسق منزلة ثالثة مستقلة بين منزلي

الإيمان والكفر، واعتبروه وسطا بينهما. فمرتكب الكبيرة دون المؤمن وخير من الكافر، لا يرتفع إلى مرتبة الإيمان ولا يهوى إلى حضيز الكفر (زهدي حسن، 1366هـ / 1947م،، صفحة 54). وقد استدلل المعتزلة في ذلك برأي واصل بن عطاء الذي قال: "إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا وهو اسم مدح، والفاسق لم يستكمل خصال الخير، ولا ستحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنا، وليس هو بكافر أيضا، لأن الشهادة وأعمال الخير موجودة فيه، لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالدا فيها، إذ ليس في الجنة إلا فريقان فريق في الجنة وفريق في النار" (زهرة، صفحة 122).

5. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهو الأصل العملي الوحيد من أصولهم الخمس، إذ الأصول الأربعة الأولى تتعلق بالنظر والاعتقاد، وقد مارس المعتزلة هذا الأصل عمليا (رستم، 2005، صفحة 98)، وأوجبوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالوسائل الثلاث التي حددها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره، بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"، فاليد وتشمل الفعل وتعني: القوة- ثم اللسان ... ثم الرفض القلبي (عمارة، 1997، صفحة 54). كما أقروا بجواز الخروج المسلح على أهل البغي والفسق واستدلوا بقول الله تعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى"^(المائدة2)، وقوله: "وقاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى أمر الله" (الحجرات9)، فوقف بذلك المعتزلة موقف الخوارج والزيدية وبعض الفرق من أهل السنة (عمارة، 1997، صفحة 54).

فِرْقُ الْمُعْتَزِلَةِ:

رأينا أن المعتزلة كانت تجمعهم عقائد مشتركة سموها الأصول الخمس، لكنهم سرعان ما تعمقوا في بحث تلك الأصول، وتوسعوا في شرحها، مستعينين في ذلك بالفلسفة اليونانية التي بدأوا يدرسونها والتي أمدتهم بأفكار جديدة، ومواد للبحث والنظر غزيرة، فدب الخلاف بينهم وتشعبت آراؤهم، وتعددت وجهات نظرهم، فانقسموا بسبب ذلك إلى عدة فرق (زهدي حسن، 1366هـ / 1947م،، صفحة 113)، كما هو الشأن مع الفرق الإسلامية الأخرى، فمنهم من يقول أنها افتقرت إلى اثنتي عشرة فرقة مثل الشهرستاني (الشهرستاني، 1414هـ، صفحة 59)، أما الرازي فيذكر سبع عشرة فرقة (الرازي، صفحة 40)، فيما يرى البغدادي أنها قاربت عشرين فرقة وكل فرقة منها تكفر سائرهما (البغدادي، صفحة 24)، وهذه الفرق هي: الواصلية، والعُمُروية والهُدَلِيَّة، والنَّظَّامِيَّة، والمردارية والمعمرية، والثُمَامِيَّة، والجاحظية، والخابطية، والحمارية، والخياطية، والشحامية، وأصحاب صالح قبة، والمربسية، والكعبية، والجُبَّائِيَّة، والبهشمية (البغدادي، صفحة 24).

أسباب انتقال الفكر المعتزلي إلى المغرب:

تضافرت عوامل عديدة ساعدت على دخول مذهب المعتزلة إلى بلاد المغرب في القرن الثاني للهجرة، ويمكن حصرها فيما يلي:

1. جهود الدعاة المعتزلة: كان لواصل بن عطاء - رأس المعتزلة وأحد مؤسسي المذهب - دور كبير في نشر دعوة الاعتزال ببلاد المغرب في بداية القرن الثاني الهجري، لما أرسل داعيته عبد الله بن الحارث إلى إفريقية لدعوة لهذا المذهب (التهامي، 2005، صفحة 197)، والذي أجابه خلق كثير من سكان البربر، وامتد تأثيره حتى بلغ مساحات واسعة من بلاد المغرب، كمدينتي البيضاء وطنجة التي يقول عنهما البلخي: "والبيضاء هي كورة كبيرة يقال أن فيها مائة ألف تحمل السلاح يقال لهم الواصلية (وهم أتباع واصل بن عطاء) ... وطنجة وهي بلاد إدريس ... وهم معتزلة" (البلخي، 2018، صفحة 193) كما يذكر ياقوت الحموي: "أن مجمع الواصلية كان قريب من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها (الحموي، صفحة 8)".

وتُرجع بعض الدراسات سبب سرعة انتشار الفكر الاعتزالي في تلك الأمصار إلى استعداد سكانها لتقبل أي دعوة جديدة، فوجد ابن الحارث في هذه القبائل بيئة مناسبة لنشر مذهبه (التهامي، 2005، صفحة 198).

2. دور الأغلبية في نشر الاعتزال: اعتنق الكثير من الأمراء الأغلبية المذهب الاعتزالي رسمياً، تيمناً بخلفاء بني العباس (المأمون والمعتصم والواثق)، وبما أن الأغلبية كانوا ينوبون في إدارة شؤون إفريقية للعباسيين، فقد أوكلوا المناصب الإدارية والقضائية للفقهاء الحنفية، والذين كانوا في الغالب معتزلة، مما ترتب عنه بعض الصراع بين المالكية والأحناف، وتجلّى ذلك في شكل مناظرات ومقاطعات، وبرزت أسماء مشرقية أمثال القاضي ابن أبي الجواد المعتزلي أيام زياد الله الأول، والقاضي الصديني أيام زياد الله الثاني، وتعرض الفقهاء السنة لمضايقات خاصة في مسألة خلق القرآن (بيشي، صفحة 552).

3. التواصل الثقافي مع المشرق: يعد من الأسباب الهامة التي ساهمت في انتشار المذهب الاعتزالي ببلاد المغرب، وتجلّى ذلك في عودة المغاربة من المشرق بعدما تشبعوا بفكر المعتزلة، وممن نقلوا آرائهم وأفكارهم في القدر والأفعال سليمان بن أبي عصفور الفراء، صاحب كتاب أعلام النبوة، خلق القرآن (بيشي، صفحة 552)، وأحد الفقهاء الأحناف في العهد الأغلبي، رحل إلى العراق ثم عاد يطرح العقائد الاعتزالية التي تلقاها عن أئمة الاعتزال بالمشرق أمثال بشير المريسي، وأبي هذيل وغيرهم (التهامي، 2005، صفحة 199). ونجد أيضاً يحيى بن عون سليمان بن عصفور الذي نشر المذهب بعد عودته من المشرق في كل مدينة من مدن المغرب وكل زاوية من زواياه، وأصبح هو شيخ المعتزلة بالقيروان، وهناك فقيه آخر هو عبد الله بن الأشج رحل إلى العراق وعاد إلى القيروان، ليساهم في نشر الفكر الاعتزالي (التهامي، 2005، صفحة 199)، وبالروضة الأندلسية يتصدر اسم فرج بن سلام القرطبي، وخليل بن عبد الملك الغفلة، وكذا عبد الأعلى بن وهب بن عبد الرحمن، وإبراهيم بن حصن الغافقي الذي يقال أنه المالكي الوحيد الذي تمعزل، ثم ارتحل إلى المشرق وبه توفي (بيشي، صفحة 553).

ترسيخ المعتزلة لأرائهم الفكرية والعقائدية ببلاد المغرب:

رأينا سالفاً أن المعتزلة استطاعوا نشر آرائهم الفكرية والعقائدية في نطاق واسع من بلاد المغرب، كالبيضاء وطنجة بالمغرب الأقصى، والمناطق الممتدة من تلمسان إلى تاهرت، وأيضاً بالقيروان في تونس وغيرها، ومن أهم القضايا الاعتزالية التي طرحها أصحابها نذكر:

1. مسألة خلق القرآن:

اقتربت مسألة خلق القرآن بتاريخ المعتزلة، فما ذكروا إلا وسبقت إلى الذهن تلك المسألة، لأنهم الذين أثاروها في العصر العباسي على عهد المأمون والمعتصم والواثق (زهرة، صفحة 141)، وهي مسألة نفى فيها المعتزلة صفة الكلام عن الله عز وجل، ويوضح ذلك عبد القاهر البغدادي بالقول: "إن الذي يجمع المعتزلة أمور منها نفهم عن الله عز وجل صفاته الأزلية ... وزادوا على هذا إن الله لم يكن له في الأزل اسم ولا صفة ... ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل وحدوث أمره ونهيه، وخبره، وكلهم يزعمون أن كلام الله عز وجل حادث، وأكثرهم يسمونه مخلوقا" (سليم، 2016، صفحة 210)، ومن هنا نفوا صفة الكلام على الله وقالوا: "إن الله إذا أراد أن يتكلم خلق الكلام في محل ما، فيكون ذلك المحل هو المتكلم بكلام الله عز وجل لا الله سبحانه وتعالى". وقد قادهم قولهم هذا بأن القرآن مخلوق (بلبشير، 2016، صفحة 170). ومن آرائهم في ذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق القرآن أولا في اللوح المحفوظ، ثم خلقه في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يخلقه في المصاحف التي نكتبه فيها ونتلوها منها، ثم يخلقه فيمن يحفظه أو يتلوه من العباد (سليم، 2016، صفحة 211).

وقد أثار هذه مسألة الكثير من الشيوخ والقضاة ببلاد المغرب، منهم القاضي بن أبي جواد وهو من أبرز وجوه الاعتزال في القيروان، تولى القضاء في الدولة الأغلبية عهد زياد الله الأول، وامتنح العديد من العلماء السنيين منهم الإمام سحنون في مسألة خلق القرآن، أيضا القاضي الصديني الذي تولى القضاء أيام الأمير إبراهيم بن أحمد، وامتنح هو الآخر عدة علماء (التهامي، 2005، صفحة 201)، ورجل آخر يدعى أبي إسحاق المعروف بالعشماء لقب بذلك لأنه أعمش العينين، كان يذهب إلى القول بخلق القرآن وينظر فيها مناظرة شديدة، وله في ذلك لمّة وأصحاب وأحزاب يجالسونه (الخشني، صفحة 76)، ومنهم محمد المعروف "بالمسحي" الذي كان يتصدرهم في خلق القرآن وكان المعتزلة يقصدونه، ومنهم رجل يدعى ابن أبي روح ويلقب "بالبغلة" كان معنيا بالجدل في خلق القرآن وفي الأسماء والصفات (التهامي، 2005، صفحة 202).

2. مسألة الأسماء والصفات:

اشتهر عن المعتزلة نفهم الصفات كلها عن الله عز وجل سواء كانت ذاتية لازمة أو اختيارية، وكان أول من تكلم في نفي هذه الصفات هو الجعد بن أدهم. وعن الجعد أخذ الجهم بن صفوان مقالته في نفي الصفات ويصور المقرئ فتنته بقوله: "ثم حدث بعد عهد الصحابة رضي الله عنهم مذهب جهم بن صفوان ببلاد المشرق فعظمت الفتنة به، فإنه نفى أن يكون لله تعالى صفة، وأورد على أهل الإسلام شكوكا أثرت في الملة الإسلامية أثارا قبيحة تولد عنها تولد عنها بلاء كبير ... فكثير أتباعه على أقواله التي تؤول على التعطيل" (المقرئ، صفحة 190).

ولما ظهر المعتزلة أخذوا عن جهم بن صفوان قوله في نفي الصفات، فكان واصل بن عطاء ينفيها أصلا لأنها - حسب زعمه - تؤدي إلى الشرك. ولذلك كان يقول إن من أثبت لله تعالى معنى أو صفة قديمة فقد أثبت إلهين (زهدي، 1366هـ / 1947م، صفحة 63).

3. رؤية الله عزوجل:

والخلاف في مسألة الرؤية قائم بين المعتزلة والأشاعرة دون غيرهم ممن يقولون أن الله سبحانه جسم، وأنه لو لم يكن جسماً لما صح أن يُرى (سليم، 2016، صفحة 207)، في حين ذهب المعتزلة بالقول إلى أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يراه المؤمنون في الآخرة، وأولو الآيات الدالة في القرآن الكريم كقوله تعالى: (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) (القيامة 23) قالوا: إن ذلك بمعنى أنها منتظرة ما يفعل بها ربها، وكما يقال: "أنا إلى فلان ناضر إلى ما يفعل بي، يريد معنى التوقع والرجاء. أما الأحاديث المروية، فقد أنكروها بحجة أنها أحاديث آحاد، واحتجوا بآيات قرآنية: "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ" (الأنعام 123) وقوله تعالى لموسى عليه السلام: "قَالَ رَبِّي أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي" (الأعراف 143).

وقد ذهب العديد من فقهاء المعتزلة ببلاد المغرب إلى نشر هذه المعتقدات، وجرت بينهم وبين علماء أهل السنة الكثير من المناظرات، كتلك التي جرت بين الفقيه المعتزلي سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء، والفقيه المالكي محمد بن سحنون، لما حاول الفراء امتحان بن سحنون فقال له: يا أبا عبد الله، الله سعى نفسه، فأجابه محمد بن سحنون: "الله سعى نفسه لنا ولم يزل وله الأسماء الحسنى"، يقول الخشني في تعليقه على سؤال سليمان بن أبي عصفور: "أراد بذلك أن يقول له نعم فيلث عليه الإقرار بحدوث الأسماء والصفات، فلم يفلح في ذلك، لتفطن محمد بن سحنون ما يريده بن أبي عصفور، فأفسد عليه بذلك تدييره (بلبشير، 2016، صفحة 172).

ويشير أبو العرب في طبقاته أن رجلاً يعرف بأبي إبراهيم بن أبي مسلم كان يتكلم في الأسماء والصفات ومذاهب الجدل، ويقول في الله عزوجل أنه جسم لا كالأجسام، ويقول في ذلك معارضا لمن خالفه (بلبشير، 2016).

أما بخصوص مسألة رؤية الله تبارك وتعالى فتذكر كتب الطبقات أن فقهاء المعتزلة أثاروها في العديد من المجالس وخاصة في القيروان، ومنهم سليمان بن الفراء الذي كان يحضر مجلس أسد بن فرات، فسمعه يتحدث بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة، فأنكر عليه ذلك، فسمعه أسد بن فرات فقام إليه وضربه ضرباً شديداً حتى أدماه (تميم، صفحة 82).

ويذكر صاحب رياض النفوس رأي سليمان بن حفص المعتزلي في تأويله لبعض آيات النظر إلى الله عزوجل، فيقول: "أن أصحاب أسد بن الفرات كانوا يقرؤون عليه يوماً ما تفسير "المسيب بن شريك"، إلى أن قرأ القارئ قوله تعالى: (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ)، وكان سليمان بن حفص جالسا بين يديه، فقال له يابا عبد الله: من الانتظار، وكان إلى جانب أسد نعل غليظ، فأخذ أسد بتلبيبه، ومسكه بيده وأخذ بيده الأخرى نعله وقال: "أي والله يازنديق لا تقولها أو لا أبيضن بها عينيك، فقال نعم ننظره (أبي بكر عبد الله، 199، صفحة 265).

هذه أمثلة وجيزة عن بعض آراء المعتزلة ببلاد المغرب الإسلامي والمناظرات التي خاضها بعض رجالها مع أئمة أهل السنة، وسنأتي الآن التفصيل في تصدي ومقاومة علماء السنة (المالكية) لبدع المعتزلة.

مقاومة علماء السنة للفكر الاعتزالي:

يرى الأستاذ إبراهيم التهامي أن مقاومة علماء السنة المغاربة لبدع المعتزلة لم تأت من فراغ، أو تعصب كما يعتقد البعض، بل كانت هناك أسباب متعددة حملتهم على هذه المقاومة وإشعال فتيلها، ومنها:

1. الانحراف العقدي الواضح للمعتزلة عن ما جاءت به السنة، ومخالفتها مخالفة صريحة بتقديم العقل على الشرع في تفسير النصوص الشرعية، وهو ما أوقعهم في المحذور بتأويلهم بشكل صريح بما جاء في القرآن والسنة، حيث نفوا الصفات، ونفوا رؤية الله في الآخرة كما ابتدعوا القول بخلق القرآن، وغيرها من البدع المنكرة.

2. محاولة المعتزلة فرض آرائهم على الناس وحملهم عليها بالقوة، خاصة بعدما تبني أمراء بني الأغلب مذهبهم وعملوا على فرضه على الناس، وبلغ ببعضهم " أن كتب السجلات بخلق القرآن وأمر بقرأتها على المنابر وحمل الناس عليها" ونتج عن ذلك اضطهاد علماء السنة عندما رفضوا هذا السلوك، وقاوموه ووقفوا في وجهه تماما كما وقع في المشرق في محنة خلق القرآن (التهامي، 2005، صفحة 207). يقول الدباغ: "إن أهل القيروان امتحنوا في عهد الواثق بخلق القرآن، وعزم محمد بن الأغلب على قتل محمد بن سعيد، فما زال أهل القيروان على اعتقاد أهل السنة" (التهامي، 2005، صفحة 207).

أساليب علماء السنة (المالكية) في مواجهة المعتزلة:

انتهج علماء السنة مختلف الطرق، واتخذوا كل الوسائل الممكنة مع المعتزلة حتى يردوهم على بدعهم التي حاولوا زرعها في مجتمع المغرب الإسلامي، ونذكر منها:

1. المقاطعة أهل البدع: بعد انتشار عقائد المعتزلة الضالة في المغرب، كان لزاما على علماء السنة التحرك ضدهم فبعدما كان الأمر مقتصرًا على المناظرة والتصريحات، عمد العلماء إلى مقاطعتهم، ومن صور المقاطعة تلك ترك الصلاة خلفهم وعلى أمواتهم، يذكر حميد بن محمد القطان أنه سمع سحنون بن السعيد يقول مات رجل يقال له الرقاء، وكان من أصحاب البهلول وكان فاضلا، فحضره ابن غانم والبهلول وابن فروخ، فأتي بجنازته وجنازة ابن صخر المعتزلي، فصلى على الرقاء، ثم قدمت جنازة ابن صخر فقالوا لابن غانم "الجنازة" فقال: "كل حي ميت"، قدموا دابتي ولم يصل عليه، فليل لابن فروخ "الجنازة"، فقال: "كل حي ميت ولم يصل عليه، ثم قيل للبهلول "الجنازة" فقال مثل ذلك (تميم، صفحة 34).

ومن أشكال المقاطعة أيضا النهي عن مجالستهم والتعامل معهم والتسليم عليهم بل والإنكار على من يفعل ذلك معهم، وهو أسلوب دعى إليه القرآن الكريم والسنة النبوية لقمع المبتدعة، وطبقه سلف الأمة (التهامي، 2005، صفحة 215) ومن ذلك قوله: "وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ" (الأنعام 68). يقول السعدي في تفسيره: "والخوض في آيات الله هو التكلم بما يخالف الحق من تحسين المقالات

الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله، فأمر الله رسوله أصلاً، وأمرته تبعاً إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر، بالإعراض عنهم وعدم حضور مجالسهم ...".

وقد عمل علماء السنة في المغرب بهذه النصوص وجعلوها مبدءاً في هجر المبتدعة، ويذكر المالكي أن الإمام الهللول بن راشد كان أكثر حرصاً على مقاطعة المبتدعة فقد منع أبو محرز المعتزلي من عيادته لما مرض، وقال، قولوا له: "إن كنت على رأيك فلا تقربنا" (المالكي، 1994، صفحة 203).

ويروي أبي عثمان عن أبيه محمد أنه كان ماراً بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في الاعتزال فوقف يسمع مناظراتهم، فبلغ ذلك الهللول فلما جاءه قال له: "يا محمد بلغني أنك مررت بسقيفة العراقي فوقفتم إليهم تسمع إلى مثل هذا، فلا تقربني وأغلظ عليا" (المالكي، 1994، صفحة 203).

وامتد سلوك المقاطعة أيضاً من منعهم من إلقاء مسائلهم في المساجد وعزلهم من أن يكونوا أئمة أو معلمين لصبيانهم أو مؤدبين، وأصدر أهل العلم فتاوى في حقهم، فالإمام سحنون أفتى بأنه: "لا يسلم عليهم، ولا يُناكحوا، ولا يُعاد مريضهم، ولا تُشهد جنازتهم أدباً لهم، ويؤدبون ويسجنون حتى يرجعوا عن بدعهم (الشواط، 1411). وتذكر المصادر أن المقاطعة فتاوى العلماء كان لها أثرها، فقد قصمت ظهورهم حتى زال أثرهم من بلاد المغرب.

2. التشهير ببدهم وترسيخ عقيدة السلف في الأماكن العامة: يرى بعض الباحثين أن دعوة علماء السنة لعقيدة السلف والتشهير ببدهم المعتزلة في الأماكن العامة، يعد أسلوباً من أساليب المقاومة، فقد بلغ من شدة تمسك أهل السنة بمذهبهم أن كان الواحد منهم عندما تحضره الوفاة يوصي بأن يكتب على قبره: هذا قبر فلان بن فلان كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق متحدياً في الاعتزال جهاراً في حياته وبعد موته (زيتون، 1998، صفحة 393).

بالإضافة إلى ذلك، فقد قام علماء المغرب بتدوين عقيدة أهل السنة على جدران المساجد وصحونها، وبنقشها على الأحجار وفي مواضع أخرى، وفي هذا الصدد ذكر السراج أن بصحن جامع سوسة بُنيتْ قد كتب فيه بخط قديم نقشاً في الحجر (القرآن كلام الله ليس بمخلوق)، وكُتِبَ مثل ذلك أيضاً في عمد الجامع، وذلك كله تنبيه على مذهب أهل السنة، وتثبيت له، بسبب كثرة ما كان بها وبجميع بلاد إفريقية في القديم من المذاهب المنحرفة عن المذهب السني (الرمي، 1997، صفحة 47).

3. المناظرة: لاشك أن الصراع بين المعتزلة والمالكية وبين الشيعة والمالكية، قد أفاد المالكية في معرفة أصول الجدل والمناظرة ومدارسة ذلك حتى نشأت طائفة من علماء المالكية، يسمون بأهل المناظرة والجدل، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن سحنون، أبو عثمان سعيد بن الحد (الرمي، 1997، صفحة 47).

4. التأليف: لم يقف علماء القيروان عند هذا الحد بل ألف بعضهم مؤلفات ردوا بها على عقائد المعتزلة الضالة، خاصة مسألة خلق القرآن فقد كتب سعيد بن الحداد كتاباً يناقض فيه من يقول بخلق القرآن، كما ألف إبراهيم بن البرذون كتاباً يفضح فيه الكلاعي وبين أخطاءه التي وردت في كتابه عن خلق القرآن (الرمي، 1997، صفحة 51).

وهناك كتابين في الرد على القدرية كشف عنهما أحمد طالبي من تأليف عالمين قيروانيين، أحدهما "كتاب السنة" لأحمد بن يزيد القرشي، وثانها "كتاب الحجة" ليجي بن عون الخزاعي (التهامي، 2005، صفحة 333).

الخاتمة:

وبعد هذا العرض السريع الذي تطرقنا فيه إلى تسرب الفكر الاعتزالي ببلاد المغرب الإسلامي، وانتشاره في العديد أقطاره الثلاث (الأدنى، والأوسط، الأقصى) تبين لنا:

1. أن الفكر الاعتزالي إنما استقوى في المغرب الإسلامي بتبنيه من بعض الدويلات السياسية الفاعلة، وبالأخص الدولة الأغلبية بإفريقية التي اعتنق أمراءها هذا المذهب اقتداءً بخلفاء بني العباس الثلاث (المأمون والمعتصم والواثق).

2. جهود عبد الله بن الحارث في ترسيخ الفكر الاعتزالي ببلاد المغرب، واستجابة خلق كثير من سكانه.

3. اتخاذ علماء السنة المالكية موقفاً حازماً ضد التيار الاعتزالي، باعتباره فكراً منحرفاً عن منهج أهل السنة ومخالفاً له على أساس تقديمه للعقل على الشرع وجعله متحكماً ومفسراً للنصوص الشرعية.

4. تعدد أساليب المقاومة ضد هذا التيار، حيث التجأ العلماء إلى كل الوسائل التي تمكنهم من الوصول إلى غرضهم من القضاء على الاعتزال والمعتزلة وعلى كل بدعة دعوا إليها.